وإنا على فراقك لمحزونون يا مفتي الأمة الإسلامية

عطاء الرحمن الندوي

لست أدري كيف أكتب هذا الموضوع المؤلم وكيف أعبر فيه عما في نفسي من الحزن والأسى ومن المحبة التي ألقاها الله تبارك وتعالى في قلبي ما كنت دافعا ثمنها وما يجول بخاطري من الحمد والثناء لهذا الفقيد حتى أقول بلسان شاعر عربي :

بكينا بكاءً لامرئٍ قل أن يُرى
له في الدعاة العاملين نظيرُ
فخلو ملاي إن ألح بي البكا
فإن فراق الصالحين عسيرُ

لقد إستأثرت رحمة الله تبارك وتعالى بالداعية الكبير والمفكر العظيم والأديب البارع والمجاهد الخالص والعالم الشجاع والداعية الغيور على دين الله والقاضي الحر في الشريعة الإسلامية ومفتي الأمة الإسلامية والعالم الراهن والأستاذ الحنون بين تلاميذه المحبين المنتشرين في العالم كله سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز في فجر أمس الخميس ٢٧ محرم الحرام ١٤٢٠ هـ الموافق ١٣ مايو/ ١٩٩٩م عن عمره المبارك يناهز ٩٠ / عاما ، بعد رحلة علمية وفكرية إسلامية وأدبية عربية وحل مسائل فقهية قديمة وحديثة دقيقة وجليلة ومشاكل إسلامية عالمية وسياسية ، وتقديم خزائن كبيرة من العلوم والفقه والمعرفة الإسلامية الصحيحة والأفكار القرآنية العميقة وعلوم الأحاديث النبوية السليمة إلى العالم الإسلامي وخارجه وإلى الأجيال المسلمة الناشئة من مشارق الأرض ومغاربها ، وترك تراث علمي كبير للأجيال المسلمة القادمة ، حتى امتد هذا التراث العلمي القيم إلى ربوع العالم العربي والإسلامي مع العالم الغربي في حياة الفقيد كذلك ، وخدمة طويلة الأمد في مجال علوم القرآن الكريم والأحاديث النبوية الكريمة والفقه الإسلامي وفي مجال الدعوة الإسلامية السمحة والواسعة عامة وفي الفقة والإفتاء والقضاء خاصة ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وفقدت الأوساط العلمية والدينية في العالم كله شخصية إسلامية عالمية في دفين ١٣ مايو / ١٩٩٩م ، وكانت هذه الشخصية بارزة في العلم والمعرفة والتربية والإصلاح ، وكانت لها مكانة فريدة بين علماء الإسلام من الشرق إلى الغرب ، وهزت أسر المعاهد التعليمية والمكاتب الفكرية بجميع أقسامها وشعبها بنبأ وفاة هذه الشخصية العالمية وفي هذا الصدد المؤلم والمحزن طلب مني فضيلة الأستاذ أبو الخير محمد عبد الرشيد - نائب رئيس التحرير لمجلة " الهدى " العربية الشهرية الصادرة من داكا بنغلاديش شيئا من الكتابة عن حياة هذا المجاهد في الله في المجلة " الهدى " الذي قضى حياته كلها حافلة بالدعوة إلى الله ، والجهود المتواصلة الجبارة في سبيل إعلاء كلمة الله في الأرض ، والأعمال الصالحة لسقاء بذور الإسلام ، حتى يغطي ظله مشارق الأرض ومغاربها ، وأنا كنت أفكر أيضا عن الكتابة عن هذا الفقيد منذ تلقيت خبر وفاته بغاية من الأسف والأسى ، ومع ذلك كنت في تذبذب وتردد عند الكتابة ، حتى بدأت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، وآخذ القلم حينا وأتركه حينا آخر خوفا من العجز في أداء حقه وبيان فضله أمام العارفين والجاهلين عنه ، وفي الأخير جلست أكتب شيئا متوكلا على الله عن هذه الشخصية الربانية والداعية الإسلامية وعن حياتها الطويلة الحافلة بالأعمال الجليلة والخدمات الدعوية التي عرفتها بواسطة أساتذة ندوة العلماء لكناو - الهند - حيث قضيت تسعة أعوام في حرم دار العلوم لندوة العلماء، وعشت فيها بين الظل والماء وتحت إشراف أساتذتها الكبار . وبمجالس سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي - أسبغ الله عليه نعمة الصحة والعافية لخدمة الإسلام والمسلمين - وبمحاضراته القيمة المملوءة بالمعلومات الواسعة إثر جولاته في الدول العربية وعودته الى ندوة العلماء وإظهار إنطباعاته القيمة أمام طلاب ندوة العلماء في مسجدها الشامخ تارة وفي قاعاتها الواسعة تارة أخرى عن المؤتمرات الدولية الإسلامية لحل قضايا الأمة حيث يشارك فيها فقيدنا وإمام المسلمين ومفتي الأمة الإسلامية بإهتمام بالغ ، ويقدم فكرة عظيمة لحل مشاكل المسلمين في ضوء كتاب الله العظيم الذي كان محوراً لدراساته الواسعة وتأملاته الطويلة والتعمق في معانيه البعيدة ومفاهيمه القيمة ، حيث كان الفقيد يؤمن كامل الإيمان بأن السنة النبوية المطهرة والقرآن الكريم إنما هما مفتاحان رئيسان لحل جميع المشكلات والقضايا التي يعيشها الإنسان من ربوع العالمين العربي والإسلامي مع العالم الغربي . حتى جلست أفكر بأي عنوان أبدأ هذا الموضوع ؟ وبأي عبارة أعبر عما في نفسي من الحزن والأسى ؟ وجولت ساعات طويلة في حديقة اللغة العربية وآدابها لإلتقاط عنوان بمستوى الحزن وبمنزلة هذا الفقيد ، حتى وجدت هذا التعبير في الحديث النبوي الشريف حيث جرى به لسان رسولنا الكريم ﷺ بمناسبة حزن من الأحزان أصابه بوفاة نجله البار إبراهيم .

وُلد الشيخ بن باز في الرياض ١٢ ذي الحجة ١٣٣٠ هـ في أسرة

كريمة حيث كان بعضها مكبا في الزراعة وبعضها في التجارة ، وكان بعضها عاكفا على طلب العلم وبعضها مشغولا بكسب الحلال لنيل مرضاة الله، ومن أعيانها عبد المحسن بن أحمد آل باز ، والشيخ المبارك بن عبد المحسن وهو تولي منصب القضاء في السعودية ويظهر خلال هذا التاريخ القصير واشغال اعضاء هذه الأسرة طابع السعي في كسب الحلال لقضاء الحياة ، وهذا الطابع يشير إلى بيئة الفقيد التي ترعرع فيها ، وهي بيئة إسلامية صحيحة ، ثم أسبغ الله عليه نعمة العلم والمعرفة الاسلامية وجمعه بجماعة من أهل العلم والورع والصلاح وأصحاب الأخلاق الكريمة . وتلمذ عليهم ونهل من مناهلهم الأصيلة بكتاب الله العظيم والفقه الاسلامي والحديث النبوي ما افعم عقله حكمة وعلما واترع نفسه صلاحا وهديا ، ومن ذلك الحين فإن الفقيد جعل القرآن الكريم محورا لأعماله الجليلة ولعب دوره في مجال الخدمات الدعوية ، ولا يزال القرآن الكريم يضيء حياته الحافلة بنشر الدعوة الاسلامية الى اخر لمحات حياته ، حيث أنه حفظ القرآن الكريم في صغره ، ولما ايفع هذا الصغير وجد نفسه في بيئة العلم الصحيح في مسقط راسه التي تزخر بالعلماء والمشايخ ، وكان اكثرهم من أسرة الفقيد التي لا تزال قائمة على تلك الأمانة التي عرضها الله تبارك وتعالى على السماوات والأرض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ، وتداولت هذه الأمانة منذ حملها محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - في القرن الثالث عشر في هذه الأسرة بالبقية الباقية من كرام العلماء وكبار المشايخ من أمثال الشيخ محمد بن عبد اللطيف إبن عبد الرحمن ، والشيخ صالح بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن حسن والشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف مفتي المملكة إلى عهد الملك فيصل - رحمه الله - وتلمذ الشيخ على مشايخ كثيرين من خارج الأسرة ، وكان من بينهم الشيخ سعد بن حمد آل عتيق ، وهو كان قاضي الرياض آنذاك ، والشيخ حمد فارس وهو كان وكيل بيت المال في الرياض ، والشيخ سعد البخاري بمكة المكرمة وأخذ عنه الفقيد علم التجويد ، وكذلك أنه تلمذ على الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ سنين طوالا ما بين ١٣٤٧-١٣٥٧ هـ ، وكان الفقيد مبصرا في بداية حياته ثم أصابه المرض في عينيه عام ١٣٤٦ هـ ، وعبر الفقيد عن هذا المرض بقوله الذي ينير القلوب ويجدد الإيمان حيث قال : " كنت بصيراً في أول الدراسة ثم أصابني المرض في عيني عام ١٣٤٦ هـ ، فضعف بصري بسب ذلك ثم ذهب الكلية في بداية عام ١٣٥٠ هـ والحمد لله على ذلك ، وأسأل الله جل وعلا أن يعوضني عنه بالبصيرة في الدين والجزاء الحسن في الآخرة كما وعد بذلك سبحانه على لسان نبيه محمد ﷺ كما أسأل سبحانه أن يجعل " العافية في الدنيا والآخرة " .

الفقيد في القضاء والتدريس ودوره البارز في الجامعة الإسلامية بالمدينة :

لقد ولي الفقيد منصب القضاء في منطقة الخرج ، وكان ذلك ما بين ١٣٥٧-١٣٧١ هـ ، ولعب دورا كبيرا في هذه السنوات الطويلة ، وأدى هذه الواجبات حق قدرها بدون أي نقص وزيادة في هذه المسؤولية العظيمة ، وجعل الأعمال القضائية شغله الشاغل في كل وقت من الأوقات وفي كل مكان من الأماكن ومصدر خير وبركة وإصلاح لكل ما حوله من أمور عامة الناس وخاصتهم ومن الأمور الحكومية حتى خرج فائزا من أداء هذه الواجبات والأمانة بكل دقة وبراعة ، ونال مكانا مرموقا لدى دول المسلمين وحكوماتهم الإسلامية كلها ، وحل مكانا كريما في قلوب الناس شيوخا وشبانا ورجالا ونساءً فيهم الأسود والأبيض والعربي والعجمي والحاكم والمحكوم والرئيس والمرؤوس والسيد والمسود ، وعلى الرغم من ذلك كله فإن الفقيد كان مائلا إلى العلم والتدريس وإشاعته بين الراغبين كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، وحرصا على التدريس خلال أداء مهمة القضاء ، مع أنه يعرف حق المعرفة بأن الجمع بين القضاء والتدريس لا يمكن إلا إذا واجه مشاكل وصعوبات في تحقيقهما في حياة شخص واحد . لأن القضاء يتطلب من القاضي التفرغ التام كما يتطلب التدريس من صاحبه كل الأوقات خاليا من الأعمال الأخرى ، وفي هذه الحقيقة ترك الفقيد منصب القضاء في عام ١٣٧١ هـ ، وتفرغ نفسه للتدريس ، وبدأ هذا العمل وهذا العهد الجديد بالرياض من العام المذكور إلى عام ١٣٨٠ هـ ، ثم انتقل نائبا عن أستاذه سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم مفتي المملكة إلى رئاسة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة سنة تأسيسها ، ولازم بها الى عام ١٣٩٥هـ حتى عينته الحكومة في منصب الرئيس العام لإدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والإرشاد بمرتبة وزير ، وكذلك شغل الفقيد إلى آخر حياته بمنصب عضو هيئة كبار العلماء ، وعضو المجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة ، وعضو الهيئة العليا للدعوة الإسلامية في السعودية ورئيس المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ، ورئيس المجلس الأعلى العالمي للمساجد ، ورئيس مجلس المجمع الفقهي الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي وبمنصب مفتي عام للمملكة العربية السعودية حيث عُين في هذا المنصب العظيم في عام ١٤١٤هـ ، و لازم بالرياض مرة أخرى بمنصب القضاء والإفتاء ، ومن هنا كان الفقيد لا يغادرها إلا إلى بيت الله العتيق لأداء مناسك الحج أو العمرة ، أو الحضور في المؤتمرات الدولية الإسلامية .

ولما زار الملك فيصل بن عبد العزيز - رحمه الله - في عام ١٣٨٤هـ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عقدت الجامعة حفلة كريمة لإكرام الملك رحمه الله ولقدومه الميمون في الجامعة ، وفي هذه المناسبة السارة ألقى الفقيد قصيدة قيمة في إستقبال الملك فيصل من قبل الجامعة ، ونشرت هذه القصيدة في الصحف العربية آنذاك وفي الدوان

الثاني للفقيد بعنوان " همسات القلب " وكذلك في كتاب الأدب للسنة الأولى من الجامعة بعنوان " دنيا ودين " وعرض فيها الفقيد إنطباعاته القيمة عن الجامعة الإسلامية ورسالتها التي تحملها للعالم ، ولا شك فيه بأن الفقيد لعب دورا بارزا في كل نجاح وتقدم أحرزته الجامعة الإسلامية بجميع أقسامها وشعبها وبفروعها المتلاحقة من الكليات والجامعات من سائر أنحاء العالم ، حيث يحضر الشيخ بن باز جميع الفصول الدراسية بين الفينة والفين ، وربما يستمع دروس الأساتذة جالسا بين الطلاب ، وفي حين إذا مسته الحاجة فيقوم بتوجيهات ثمينة وإرشادات حكيمة لسد الحاجة ، وتردد على أساتذة الجامعة حينا بعد حين ، فيسألهم عن صحتهم وراحتهم ويشاورهم في شؤون الجامعة حينا وفي شؤون الطلاب والتدريس حينا آخر ، وكان مؤكدا على العناية والإهتمام بالعقيدة الإسلامية الصحيحة لأنه يرى معظم طلاب الجامعة من غير العرب ومختلف الدول الإسلامية وغير الإسلامية ، وكثيراً منهم عاشوا منذ ولادتهم في بيئة البدع والخرافات وترعرعوا في أفكار وضعت في بيئتهم لا تنسجم مع رسالة الإسلام الخالدة وعقيدته السمحة ، وأيفعوا في بيئة البدع بعيدين كل البعد عن العقيدة الإسلامية الصحيحة حتى لحقوا بالجامعة ، ولذلك يؤكد الفقيد على الاهتمام بأصول العقيدة والإيمان ، وقد كتب أحد من أساتذة الجامعة في مقدمة محاضرة ألقاها الشيخ بن باز عن سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب " وفي العقائد كان الشيخ بن باز مثال الإعتدال لا هو من أولئك المتطرفين الذين يطلقون عبارات الشرك على كل صغيرة وكبيرة ، ولا هو من المتساهلين الذين يغضون النظر عن صغار الأمور ، بل أنه لينبه على الصغيرة والكبيرة ويضع كل شيء في موضعه " .

خدمات الفقيد بين المسلمين في فجاج الأرض مشرقة مغربة

وصلت خدمات الشيخ بن باز من حدود الجامعة الإسلامية إلى صعيد المملكة العربية السعودية ، ثم من السعودية إلى الدول العربية و الإسلامية ثم منها إلى فجاج الأرض مشرقة مغربة حيث يغتبط المدرسون بإنتسابهم إلى الشيخ بن باز أثناء التدريس وخلال العمل في مجال التحقيق والتصنيف ، وإن الدعاة الذين يقومون بتبليغ الدعوة في الأقاصي البعيدة من دول الإسلام والمسلمين يقدمهم الشيخ بواسطة مجلس الدعوة الإسلامية بالرياض ، وإنهم يبذلون كل ما في سعتهم لإخراج المسلمين الساجذين من أعمال الشرك والضلال إلى توحيد الخالص ومن ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد والإيمان ، وكذلك لعب الشيخ بن باز بإرسال الدعاة دورا كبيرا في نشر الدعوة الإسلامية بين الجالات المسلمة و في توزيع الكتب الدينية والكتب الإسلامية الأخرى في موضوع التاريخ والسير والتفاسير والأحاديث على الجهات المحتاجة في العالم كله ، وبهذه الخدمات الجليلة فإن الشيخ أصبح معروفا لدى جميع المسلمين من الصغار إلى الكبار ومن الأساتذة إلى الطلاب في العالم الإسلامي وخارجه ، ومن أبرز ميزاته القيمة السكينة والوقار والعناية الخاصة بالفقراء والمحتاجين والضعفاء والمظلومين والمضطهدين ، فلا ينصرف عنهم حتى ينصرف هم بأنفسهم ، ويتناول العطام في مائدته الواسعة المملوءة بالأطعمة الملونة اللذيذة الصغير والكبير والغني والفقير والقريب والبعيد ، ومع هذه الميزات القيمة فإن الفقيد سرعان ما ينقلب نمراً وأسدا ، وتثور في صدره شجاعة الأسد الهائج إذا وصل إليه خبر الظلم والإضطهاد يقع على أبناء الإسلام من الشرق إلى الغرب، ويحاسب نفسه مسؤولا لحماية الإسلام والمسلمين المظلومين بكل ما يملك من القوة ، ويسنم في الحياة وتثير نار غضبه إذا تعلقت القضية بالشريعة الربانية والعقيدة الإسلامية ، وهنا يكفي لنا الإشارة إلى موقفه في الأمور الدينية لما أصدرت محكمة الحكومة المصرية قرارا بإعدام سيد قطب الشهيد وإخوانه المتهمين ، وأرسل الشيخ بن باز برقية إيمانية كتبت بقلم يقطر نارا وغضبا وبعبارات أشد وأكبر على الظالمين والحكومة المصرية البربرية من ضرب السياط ضد هذا القرار ، وأظهر فيها نار غضبه وغيرته الدينية واستنكاراته الشديدة ضد قرارات الحكومة المصرية الوحشية ، وما وقف الفقيد على هذا الحد الإستنكاري حتى كتب في هذه البرقية ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾ وهذه الخدمات المذكورة قليلة جدا بالنسبة إلى دائرتها الواسعة ، حيث أنه خلف وراءه أسرة علمية واسعة في العالم الإسلامي والعالم العربي ، ونحن نقول بإختتام هذا الموضوع القصير بشأن الفقيد العظيم " اللهم الله الجميع الصبر والسلوان ، وأسكنه دار الجنان ، وأدامه قدوة صالحة للأجيال الناشية من المسلمين وغيرهم والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم " .

البقية المنشورة على ص - ٩

الإسلامي وبتوفير أجواء ملائمة لممارسة شعائر الدين في أماكن العمل حسب القانون ، كما تعهدت الشركة بعدم اللجوء إلى أي إجراء إنتقامي ضد الموظفات المحجبات المسلمات بعد أن قامت بفصلهن منذ شهرين على إثر رفضهن خلع حجابهن و بالإضافة إلى أداء الرواتب التي فقدنها خلال الفصل . وماذا يقول المتعصبون الأتراك عن إصدار هذا الأمر من قبل آبائهم العلمانية وأساتذتهم الكبار ؟ ومما لا شك فيه لقد هبت هذه الريح بإسم مروة قاو قجي في تركيا ، وأخيراً لا يجد الظالمون الأتراك سبيلا للفرار ، وإننا نسأل هؤلاء المتعصبين الأتراك الذين أبطلوا مواطنة قاوقجي بسبب لبس الحجاب الإسلامي ومهدوا السبيل لطردها من تركيا بإتهام الرجعية والأصولية وأجرحوا قلوب المسلمين وشعائرهم الدينية في العالم كله بهذه الإجراءات غير حقوق الإنسان في ضوء هذه الواقعة - إذا صح التعبير - هل ينطبق عليكم هذا التعبير " الولد اكبر من أبيه " ؟؟ وآ أسفا على مصيركم .